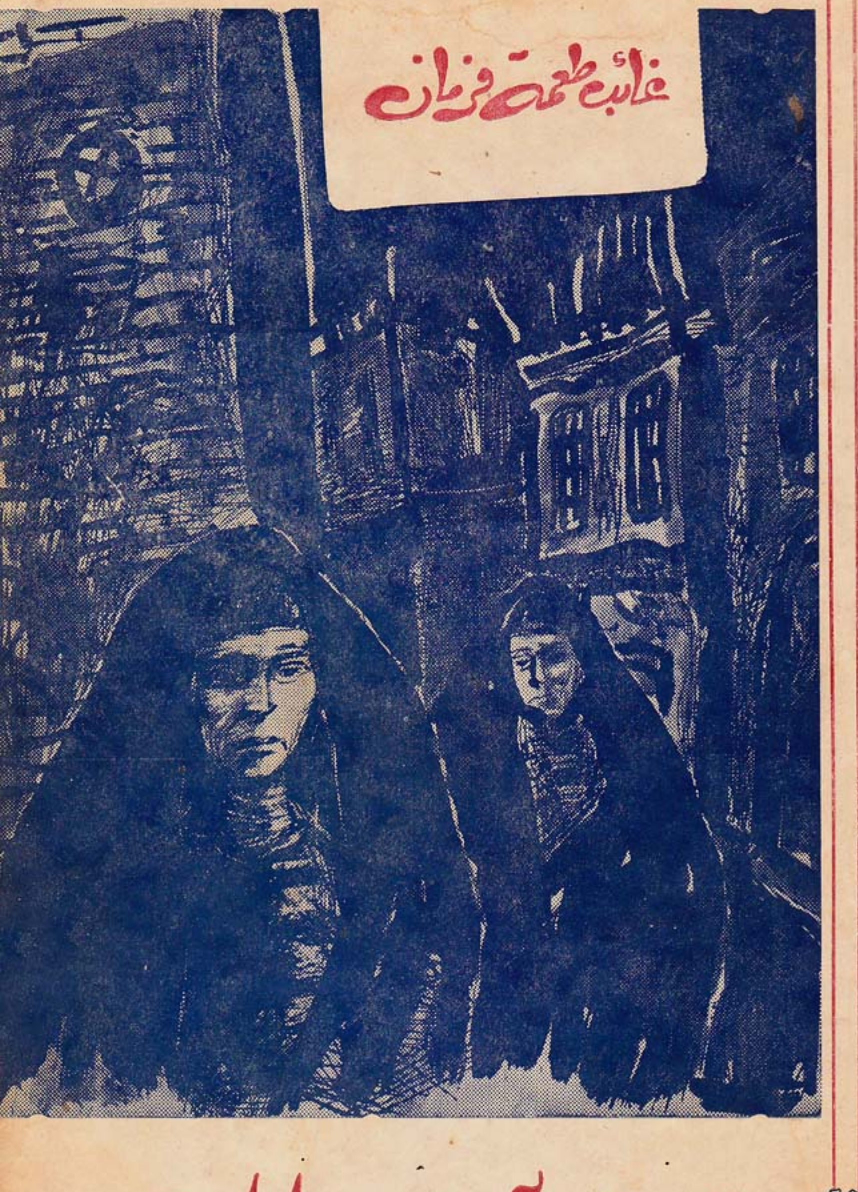
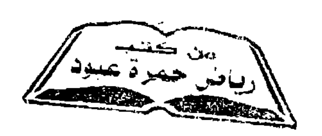
غائب طعمة فرمان



حصيد الرحى

شعر

مدونة
Riyadh
Hamza



غائب طعمة فرمان



مطبعة الرابطة ـ بغداد
١٩٥٤


مدونة
Riyadh
Hamza

الاهداء

الى قربان الحرية الاول ٠٠ ووقودها المستعر ٠٠

الى الجندى المجهول فى كفاحنا الوطنى ٠٠٠

الى صانع التأريخ ٠٠

٠٠٠٠ الى ابن الشارع

١٨ آذار ١٩٥٤ غائب ٠٠

مقدمة

تعتبر الصحافة أضخم معدة هاضمة في العالم •• تلتهم كل ما يقدم اليها بشراهة ونهم• ثم لايفتأ جوعها الابدي يصرخ في الوجوه •• طالبا شيئا جديدا ! • فهي من هذه الناحية كجهنم كلما قيل لها : هل امتلأت ؟ تجب : هل من مزيد ؟ !

والصحفيون الواقفون بجانب هذه الآلة العطشى ••كم يكلفهم سد الجشع الازرق ؟! •• وكم يكابدون لملء المعدة المثقوبة ؟!

ان الصحفي عامل بالمعنى الحقيقي للعامل •• يرتبط مصيره بآلة الطبع يوفر لها غذاءها ، ومن عصارة فكره يمدها باسباب الحياة ، ومن ارهاقه وتعبه تزداد اشراقا ، ومن عمره المحطم على عتبتها يطول عمرها ويمتد ! •• انها لا تترك له غير راحة قلقة ••

ففي الاوقات القصيرة الاجل الهزيلة كشعرات ذقن العنز •• يذوق الصحفي الراحة ، ويخلو الى نفسه •

في مثل هذه الاوقات كتبت هذه الصور والاقاصيص •• بعيدا عن العمل الصحفي الذي يطلب سرعة وآلية ••• وتفكيرا خاطفا •• وهدفي أن انقل بعض صور مجتمعنا العراقي الممتلىء بالصور القاتمة بقدر ما هو مثقل النفس بالتذمر الخلاق • وان جاء نقلي خاطفا

وصحفيا فليس الذنب فى ذلك يقع كله على عاتقى •• وانما بعضه يقع على ظروف الصحافة عندنا حيث لا تترك للصحفى الا مجالا ضيقا للتفكير خارج واجباته الصحفية لا يفى بمستلزمات التصوير الادبى الدقيق الذى يحتاج الى تأن وروية •• وان كنت أعتقد أن الصحافة بفضل انتشارها وتغلغلها بين جميع الطبقات أستطاعت أن تهدم الاسوار التى كان يبنيها بعض الادباء الذين يشعرون بنشوة واعتزاز حين يوصفون بأنهم ليسوا من الجنس البشرى !! •• فقربت الادب من الجمهور بقدر ما قربت الجمهور الى الادب •• وأصبحت الصحافة المزاحم القوى للكتاب فى نقله للانتاج الادبى حقيقتها موجهة اليهم •••

ومن جهة أخرى •• أعتقد أن خلق أدب عراقى أصيل يتوقف على أمرين رئيسيين : احترام الحرية الفكرية وصيانتها من كل اعتداء يقع عليها •• والرجوع الى البيئة العراقية لاستخلاص مادة الادب منها ، والتعبير عن الشخصية العراقية بكل ما يحيط بها من ظروف •• واظهار أمانيها واهدافها فى الحياة الحرة الكريمة •

وهما أمران يشترك فى طلبهما والايمان بضرورتهما كل أديب واع •• وكل صحفى نظيف ••

* * *

ولا بد لى بعد هذا أن اشير الى حقيقة واضحة وهى أن الحياة الحرة الكريمة التى يسعى اليها الشعب ويكافح من أجلها مع سائر

الشعوب لا تتحقق فى جو يسوده القلق والتوتر ، وتبذل قصارى الجهود من قبل أناس معينين لاجراء صفقة أخرى هائلـــة للدمار الدموى الشامل فى الحضارة البشرية •• فان مثل هذا الجو •• جو الحرب الشعة التى تهدد الانسان فى كل مكان •• يخفق بوحشية وشراسة كل أمانى الشعوب فى الحصول على مستوى رفيع كريم من الحياة •• ويشل مقدرتها المطلقة على خلق ما يزيد حياتها قيمة وسموا •• فهو بذلك يهدد مصلحة الشعب العراقى بالصميم باعتباره شعبا متطلعا يريد •• أن يلحق بالقافلة الانسانية السائرة الى أمام ويكسب لنفسه نصرا مطردا ويحقق أهدافه فى بناء حياة تكفل لجميع أفراده طمأنينة وسعادة وكرامة وحرية •

وعلى هذا الاساس القويم يصبـــح من واجب كل صحـــفى شريف وكل أديب مخلص لشعبه أن يظهر رغبة الشعب الاجماعية فى استتباب السلام •• السلام لجميع الشـــعوب •• وفى جميـــع الاوطان •••

فقد أصبح الكفاح من أجل سلام دائم ـ بعد أن برزت الى الوجود الاسلحة الفتاكة التى تسلب حياة آلاف الناس ببضع دقائق •• وبعد أن بات واضحا لدى جميع المواطنين المستفيد الحقيقى من من هذه الحرب التى يهددوننا بها ويلوحون •• أصبح الكفاح من أجل سلام دائم هو فى الحقيقة كفاحا فى سبيل القيم الانسانية جميعها ••

فقد ناضلت الانسانية منذ أن نشأت المجتمعات من أجل أن تجعل لحياة الانسان قيمة •• وكان نضالا رائعا ومجيدا ومتعدد الجوانب ••• ضد الامراض والخرافات والانظمة البالية ••• والحروب•• والعناصر المستغلة ، ضد الاضطهاد العنصرى والفكرى والاجتماعى •• ضد كل اجراء مناف لكرامة البشر •• وكان ثمرة هذا النضال أن كسبت حقوقا لا يمكن التنازل عنها ولا التهاون فيها •• حقوقا حفظت قيمة الانسان من الهدر والانتهاك وأعطت لحياته قدسية •• فاذا ما تعرضت الانسانية للحرب • فان قيمها وحقوقها الطبيعية فى تأمين حياة أفرادها من الضياع ومن الانتزاع قسرا تتعرض هى الاخرى الى محنة قاسية فبينما يكافح الناس للتخلص من كل سبب من أسباب الموت قبل أوان الموت الطبيعى تحصد الحرب بصورة شاملة هائلة ارواح الناس فى أزهر اعمارهم وأخصبها وأكثرها أقبالا على الحياة وحبا لها •• وأى كارثة أروع وأعم من أن تصاب الشعوب بشبابها ؟!

وبالاضافة الى هذا كله فان كل مثقف وكل صاحب قلم يعتز بالثقافة الانسانية ويحرص على حفظها من الضياع وعلى اضافة اشياء جديدة اليها •• يدرك عظيم الادراك الخطر الذى يتعرض اليه غذاؤه الروحى حين تعول الحرب •• ان هذه المتعة الرفيعة التى اعتاد على تقديمها لنا الشعراء والادباء والفنانون منذ أكثر من الفى سنة ، والتى نعتز بها ونضعها فى محل رفيع من نفوسنا مهددة هى

الاخرى بأن تضيع •• وكأن ارواح الذين اشربوا حب الانسـانية والتغنى بامجادها ومشاعرها الخالدة وأفنوا اعمارهم فى مدنا بكـل شيء جميل ممتع فاضل تحوم حولنا كطيور شمت رائحة عاصفـــة مقبلة تطلب حمايتنا ونصرتنا •• وتأمين سلام وطيد لها ••

وبقدر ما يتصل الامر بذكريات الشعب العراقى عن الحرب يبدو مفجعا وأليما أن يتصور العراقى وقوع حرب عالمية جديدة•• فان الجيل الطالع ما زال يذكر كيف كنا نحيا أبان الحرب الاخيرة •• وما زال ماثلا أمام أعيننا •• الخبز الاسود المخلوط بالتراب والنوى •• والغلاء الفاحش الذى ما زلنا نعانى آثاره •• وما زالت مخيلتنا ممتلئة بصورة قاتمة •• ومخجلة •• صور الجنود وهم يغازلون فتياتنا بوقاحة ومجون غير عابئين بتقاليدنا ••• وصور الثمرات التى انجبتها الارض العراقية الطية وهى تنقل الى المعسكرات •••• ونترك فى شبه حرمان •••

ان هذا شيء لا يطاق •••

اننا فى الوقت الذى نكافح لاجل الظفر بحرياتنا الديمقراطية ••• ولقبر الاوضاع الشاذة ، والخلاص من النظم الرجعية ••• يهددناشبح الحرب بايام سود أخر •• تصادر فيها حرياتنا الديمقراطية وتفرض علينا قوانين استثنائية ••

وكل هذا يفرض على كل أديب وصحفى •• أن يكون واعيا بكل ما يحاك فى الخفاء ••• للقضاء على الثقافة التى يعتز بها •••

وعلى المجهود البشرى المتعاظم لبناء حياة تكفل السعادة للجميع ..
فيعمل مع الجموع العاملة من أجل خذلان كل محاولة لشل المقدرة
الانسانية وتعطيلها عن الخلق والابداع ..

* * *

وبعد ... فان هذه المجموعة من الصور والاقاصيص يصلها
بالسلام سبب متين وان كانت لا تدور بصورة مباشرة حوله ...
فان هؤلاء المواطنين الذين تعرضهم هذه الصور ، والذين يصارعون
شذوذ الاوضاع ، ويعاركون البؤس والحرمان هم نماذج صغيرة من
شخصيات مجتمعنا العراقى الذى يطالبنا بجهود كبيرة لجعله أكثر
اشراقا وسعادة .. اننى حين أعرض هذه النماذج ادرك أن فرصتنا
الوحيدة لكنس البؤس والحرمان من حياتهم لا يتم الا حين يستتب
السلام ، وتوجه جهودنا للبناء السلمى ..

فنضالنا من أجل السلام .. هو فى الحقيقة نضال من أجلهم ..
من أجل هذه المخلوقات التعسة التى تزيدها الحرب تعاسة ..
والعكس صحيح كذلك ...

غائب طعمة فرمان

حصيدُ الرّحى

ـ انهضى •• ان الصبح استيقظ قبلك •

ففتحت الفتاة عيناها بتثاقل ، وأرسلت بصرها عبر باحة البيت ، فرأت الظلام أشد ما يكون ادلهماما ، فندت من صدرها أنة خافتة ، وحسرت الغطاء عن جسمها بتأفف •••

كانت أمها قد سمعت ساعة ضريح الكيلانى تدق ثلاث دقات فهبت مذعورة ، كأن الساعة مطارق هشمت نومها ، ففتحت باب الغرفة الصغيرة ، فانبعث الهواء الرطب اليها حادا ، وشعرت بقشعريرة باهتة تسرى فى جسمها ، وبوخزات البرد اللاذعة تنتشر على صفحة وجهها كنشار زجاج دقيق ؛ فلفت رأسها بفوطتها ، وأرتدت جوربها الاسود ••• وسعلت بقوة مرتين ، والقت نظرة الى ابنتها وهى غارقة فى نومها الدافىء فهمت أن توقظها ••• غير أن اشفاقا جارحا قد وخزها •• فتريثت حتى تلم حاجياتها ، وتضع لفائف الغزل فى السلة الممزقة الجوانب ، وترفع آلة الغزل الخشبية من مكمنها فى أقصى الغرفة ، وتضعها فى مكانها المعهود فى أول الايوان •

وعندما استيقظت الفتاة كانت الام قد أنجزت كل شىء •• وتهيأت للخروج ، فرفعت الفتاة جسمها من الفراش بتثاقل ،

وأحاطت وجهها الصغير بفوطة سـوداء ، وحشرت عذاريهـا الطويلين فى فوطتها ، وتطلعت الى الفضاء من خلال الباب المفتوح، فرأت النجوم ترتعش بوهن ••• وفى الطريق هب الهواء يخدش وجهها ••• ووراءها كانت أمها تسير فى خطوات قصيرة مسرعة كأنها تخاف من الخيال الذى يولد بين رجليها ••• ثم يتضخم •• ويزداد طوله باطراد ••• ويمتد عبر الشارع الضيق الى ما لا يبلغه بصرها ••• ثم يتلاشى على ضوء مصباح جديد •• كشبح يخاف النور ••• ويبلغ سمعها ارتعاش صفارة الحارس فى أحد المنعطفـات ••• كصراخ من حنجـرة تسـتغث ••• وتتجاوب خفقات نعالها فى السكون البارد كقدم المت على نغمات بلهاء كتمتمات الاخرس حين يشتد به الغضب •••

ورأت الدار مفتوحة الباب ، والطست الكبير يتوسط الباحة المربعة الشكل الممتدة وراء عنق المجاز ، وحوله حلقة من النسوة يجلسن القرفصـاء على طابوق الارض المشبع بالماء ، ملفعـات بالسواد •

كانت الدار ما زالت غارقة فى الظلمة يترك المصباح الكهربائى المطل فى أقصى الدار بضعة ظلال قصيرة ••• مختلفة الاطوال والحجوم ••• هى ظلال النسوة المكبات على العمل تراقص خيالات ايديهن كأشباح طيور خائفة ••• ويتدحرج ظل باهت

ينساب على الارض كدخان أسود .... فجلست هى وابنتها بينهن ...

كان الطست مليئا بمحلول العجين المخلوط بمادة «الشريس» تنبعث منه رائحة الخميرة المتفسخة مع البخار المتصاعد بصورة كريهة مزعجة .. وقد جلست امرأة مكفهرة الوجهسوداء البشرة على كرسى قصير أمام قدر الماء الساخن تصب بين آونة وأخرى الماء فى الطست وترفع كتل العجين اللزجة من قدر آخر يرقد بين رجليها وترميه فى الطست المختفى وراء طبقة كثيفة من البخار تتصاعد بغير انقطاع ... وكانت ايدى النسوة تمتد بلفائف الغزل الى الطست الملتهب بتوجس وخوف ويغمسنها بالمحلول حتى تتشبع اللفائف به ثم يدخلن فيها ايديهن ويحركنها حركة عصر متوالية حتى تتساقط حمولة اللفائف من الماء ... وتبقى المادة اللزجة معلقة بخيوط اللفائف ... ثم يكررن هذا العمل مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة ... حتى تتضخم خيوط اللفائف وتتماسك ، وتصبح جاهزة لان تتحول الى بكرات غزل ....

ومضى وقت غير قصير .. وهى جالسة الى الطست تحرك يديها مع الايدى العديدة المكسوة بطبقة من العجين الجاف حتى سمعت سعاله منبعثا من احدى الغرف ... وكانت الظلمة قد

شفت ، وسمعت زغردة العصافير فى سدرة أحد البيوت المجاورة ، فطافت ببصرها فى رقعة الفضاء القصيرة المطلة عليها ببسمة باهتة ••• وسمعت مع النسوة صوته المتحشرج وهو يقول :

ـ صباح الخير ••• يا بنات •

فأستقبلته باحساس غامض ••• مشوب برهبة مرحة •

وكانت النسوة اللائى جئن قبلها قد بدأن ينتهين من عملهن ••• وأخذن بوضع لفائف الغزل فى سلالهن ••• وبكثير من الألم تلمسن أكتافهن ومفاصلهن ••• وظهرت علامات امتعاض وألم على وجوهن المعروفة وهن ينهضن بحمولتهن الثقيلة ••• وبقيت هى وابنتها حول الطست بعد أن همدت ألسنة البخار المتصاعدة منه أو كادت ••• ترسل اللفائف من بين ايديهما صوتا رطبا كصوت فم يلفظ الماء بغيظ ••• ثم رفعت عينيها الى ابنتها الصغيرة بحنان أخرس ••• وكان وجه الفتاة يحمل معنى عذبا كأن قسماته الرقيقة تبتسم لشىء مجهول ••• وشفتاها الصغيرتان مطبقتان باطمئنان ودعة كأنهما يحلمان ••• وعيناها تشرقان بنور شفاف ضاحك ••• وعندما همت بان تضع السلة الممتلئة بلفات الغزل على رأسها سمعته يناديها ••• فصمتت لحظات قبل أن تجيب نداءه ونظرت الى ابنتها بحيرة ••• ثم طلبت اليها أن تسبقها الى البيت •

ودخلت غرفته فرأته يتوسط السرير الخشبى الكبير ونصف

جسمه الاسفل داخل غطاء مزركش فوقفت عند عتبة الغرفة تدرج جسمها بعباءتها الصوفية فابتدرها بلهفة

ـ أوه ••• أم جاسم ••• أنا شديد القلق على ابنك ••• فما هى أخباره ؟

ـ له الله •••

ـكلنا لنا الله ••• أيستطيع أحد أن يتخلى عن رحمته ؟ ••

ورفع صدره قليلا وهو يقول

ـ متى رأيته آخر مرة ؟

ـ قبل اسبوع •• ليتنى استطيع أن أذهب كل يوم ••• ليتنى أبنى كوخا الى جانبه •

فنظر اليها نظرة خاطفة ، وضغط بيديه على حجره وقال بشىء من الرقة

ـ ما أضعف قلب الام !

واعتملت فى نفسها مشاعر جمة متضاربة وهى تسمع صوته المبحوح ، وأومضت عيناها بذلة ، وقالت

ـ سنة ! ••• فترة قصيرة من عمر الانسان ••• لست هى المهم ••• ولكن المهم أن يخرج منها معافى موفور الصحة ••• المهم أن أراه مرة ثانية يخطر أمامى بقامته ••• والا فالسجن للرجال •••

ومسحت بذيل فوطتها قطرات كانت تتلألأ فى عينيها

الشاحبتين فقال لها بلهجة مواسية

ـ أوه ... لا تضخمين الاشياء ماذا سيجرى له ؟ ... أهو وحده ؟ .

وفتح السؤال أمام عنيها بابا مضاءا ، واشرق فى نفسها اعتزاز بهيج وهى تقول

ـ وحده كم من الشباب الجميل كالورود ينامون معه ... فى غرف مظلمة لا تصلح لان تكون اسطبلا لخيول العربات ... شباب ... من مختلف الناس .

وشعرت بسرور يتوثب فى حناياها بخفة ونزق فتابعت قولها بنشوة

ـ من مختلف الناس .. محامين .. اطباء .. معلمين .. كلهم أفندية ليس ابنى أحسن منهم .. انهم لسوا مجرمين .

فشعرت بطمأنينة لذيذة كنسمة فى فجر يوم من أيام الصيف ، فنظر اليها بشىء من الغبطة العفوية ، وكشفت ابتسامته العديمة المعنى عن صف لامع من الاسنان الذهبية ... وقال بصوت ندى ينم عن سرور متستر

ـ آه لو كنت تعرفين كم أحمل لكم من حنان ... كم أتألم لان ابننا بالسجن ... ونحن وانتم عائلة واحدة .

فغازل جبينها شعور بالخجل ، وهى تتمتم بكلمات الشكر .

وسادت فترة صمت قلقة قال بعـدها وهو يهـــم بمغادرة الفراش

ـ ولكن انت ••• الله يسلمك ••• تحملين عرقا من العناد ••• وهى طبيعة غير حسنة ••• لا تورث صاحبها غير النـــدم والخسارة •

فهمست بعتاب ضارع

ـ عناد ؟ ••• عميت عيناى لو كنت عنيدة •

فلوى رأسه ونظر اليها وهو يشير الى نفسه

ـ اتظنين أننى لا أعرفكم ••• عندما تزوج أبو جاسم كنت أنا صديق صباه •• لقد اشتغلنا سوية فى البناء ••• وذهبنا سوية الى الكوت لنعمل فى مشروع الغراف ••• وعندما وجدت العمل لا يأتى بثمرة قلت له يا أبا جاسم دعنا نرجع الى بغداد ••• دعنا نموت جوعا فى بغداد ولا نقبل بمرارة القلب هنا •••• ولكنه أصر على البقاء ••• أصر حتى أودى المشروع بحياته •••• وجئت انا الى بغداد لاشتغل بهذه الحرفة الوسخة ••• حرفة الحياكة •

وصمت قليلا ••• ثم تابع حديثه قائلا

ـ لقد كان رحمه الله عنيدا ••• ابنك ورث العناد منه •• كان متحمسا أكثر من اللازم •• دعى الناس تعش ••• أهو يستطيع أن يصلح الأمر •• اذا الله لا يريد صلاحه !••• أوه

... لا تدخلينا فى ايراد ومصرف .

وسعل بحشرجة ، ودرج رأسه بكوفية وهو يقول

ـ المهم أنا أشعر بمسؤولية نحوكم ... ضميرى يحاسبنى ... أنا أعرف كم تقاسين لتدبير حياتك ... لهذا عرضت لك ما أردت ... ولكن عرق العناد ما زال ينبض بدمك .

فغطت نصف وجهها بفوطتها ، وأرسلت صوتها من بين لثامها

ـ أترى نورية أهلا للزواج ؟

فأجاب بحدة

ـ عمرها ثمانى عشرة سنة ... أتحسبينها ما زالت طفلة ... أم انت عاشقة مرارة القلب ، والنهوض من منتصف الليل ؟!

ـ أوه .

ـ ثم ... أترين اننى لا أوفر لها كل ما تحتاج ؟ ... اننى حين أضعها فى بيتى .... أشم رائحة أبيها ...

فتحشرج صوته ، فسعل وبصق على الباب ... وقال بلهجة تعطف

ـ قد أكون كبير السن ... ولكن ماذا تريد المرأة من الرجل أكثر من بيت مستور وعيشة رضة ... أما شباب اليوم فهم أكثر نزقا من الشيطان .

ومسح شاربه الكث باصابع يده وقال بشىء من الفخر

ـ أتحسبين ذلك طمعا منى فى شىء ؟ ... المهم أننى أريد أن أتزوج ... فبيت الرجل لا يمكن أن يخلو من امرأة ... وبنات اليوم ـ حاشا قدرك ـ كالزبل ... لا يسمعن برجل يريد ان يتزوج حتى يتهافتن كالذباب ... ولكن قلت لك انها مسألة راحة ضمير ليس غير ... والا فاننى أستطيع أن أشترى أى امرأة بأى ثمن ما دام الله منحنى الرزق الوفير .

وأنصتت اليه بعزيمة مترجرجة وهو يحدثها عما يستطيع أن يفعله بماله ... وراقبت شاربه الكث المتجهم المصبوغ تبرق من تحته الاسنان الذهبية بريقا كريها كالعفونة ... وحاجباه يتراقصان بطرب مفتعل ، وعيناه يتشنج فيهما شعور كاذب بالصبا والفتوة .

وكرهت أن تفكر فى الامر وهى فى طريقها الى البيت ... وطردت من رأسها بنفور أفكارا موحشة كالخفافيش .. وتراقص أمام عينيها خيال وجوه متنافرة تتنازعها .. خيال مخدومها بوجهه الاسمر كرغيف محروق تعبر اسنانه الذهبية عن الغنى وبشاعة الشباب الذاهب ... وخيال ابنهـا ببنيانـه الجسـمى المتين ، وبقسماته الصارمة ، وبمستقبله الغامض بالنسبة اليها ... وخيال ابنتها الممتلئة بلاهة واستسلاما لا حدود له ... ثم خيال آخر أفعم قلبها بحيرة جديدة ... وبمزيج من الاشـفاق واليأس والنقمة ، وشعرت بتأنيب لاذع يندفع الى ضميرها كما تندفع خفقة

ريح رطبة الى كهف مهجور ••• وأوهمت نفسها كطريقة للخلاص أنها لم تنسه ••• وأنه سبب احساسها بالضيق حين كان أوسطة ابراهيم يغريها ، ويطلب اليها أن تزوجه ابنتها ، فظلت صامتة أمام كلامه ••• بلهاء حائرة لا تستطيع أن تنطق بشيء •• وأثلج صدرها هذا التأويل ، وأطل على نفسها نور جمل كنور النهار المشرق حولها •••

وفي المساء بدا لها الامر مقززا ••• بعيدا عن مدى تصورها فهتفت بسرها

ـ اوسطة ابراهيم ••• أنت مثل أبيها ••• أمن اللائق أن تتزوجها ؟!

وانتظرت مذاق هذه الجملة في عاطفتها المضطربة الشعثاء فشعرت برعشة هامسة تسري في جلدها فخاطبت نفسها باقناع

ـ الشباب للشباب •لقد قطعت عهدا الى نعمة أن يتزوجها ••• هو صديق أخيها ••• رائحته كرائحة جاسم ••• ومرآه كمرآه ••• أوه ••• ابراهيم ••• أتحسبني مجنونة لأزوجك نورية ؟ ••• لو عرفت أنني أموت جوعا ••• أضع على ظهري جرابا واستجدي الناس لما أقدمت على هذا المنكر

وشع نور الرضى في عينيها الهزيلتين وهي تقول

ـ لقد صدقت انني عنيدة •••

وارتجف ذقنها العظمي الدقيق بعصبية وانفعال •••

* * *

وفى اليوم التالى لم تذهب الى بيت اوسطة ابراهيم ...
ونامت مع ابنتها الى الضحى ... وهو يوم نادر فى حياتها ...
لقد استيقظت كعادتها عندما سمعت ساعة ضريح الكيلانى تدق
ثلاثا ... الا انها لم تنهض من الفراش ... وشعرت بخور لذيذ
يسرى فى جسمها ... وبراحة ناعمة بعثها الدفء فى نفسها ..
والى جانبها كانت ابنتها ترقد باستسلامها الطفولى الجميل ، وجو
الغرفة المظلم يطلق الافكار من عقالها ... فتنتقل خيالها الى بيت
أوسطة ابراهيم .... فترى النسوة التعسات العاثرات الحظ
... عانسات أو مطلقات ... أو أرملات ... أو ممن يساعدن
أزواجهن فى اشاع بطون عديدة .... جالسات الى الطست
وتدعكها دعكا ... فتكتسى بطبقة عجينية جافة ... وأوسطة
ابراهيم يسعل فى غرفته بقوة وحشرجة ... جو كريه موحش
يقتل فى أعماقها كل شعور بالاطمئنان ... وعجبت لنفسها كيف
تصبر على الحياة فيه ... تستيقظ فى الساعة الثالثة لتقضى ساعات
طويلة مضجرة فى البيت الخانق الكريه الرائحة ... وترجع
عندما ترتفع الشمس وتملأ الكون بنورها الوهاج ... فتجلس
الى دولابها حتى يلف الظلام الارض بنقابه المعتم ... فتقوم
محطمة القوى ، مهروسة الاعضاء ، تتلمس مفاصلها وكتفيها
وتئن بصوت خافت مخافة أن يصل الصوت الى ابنتها ... فيكدر
روحها صوت الألم الموجع .

ولم تنهض من فراشها حتى رأت الشمس تتسلل من خلال زجاج فتحة السقف الضيقة ••• وفى فكرها أن يكون مساء اليوم شيئا حاسما بالنسبة لها ••• يريحها من اضطراب العاطفة وحيرة الفكر •••

وخاطبت نفسها بلذة

ـ ماذا فى نعمة •••• انه نعم الزوج •• ألانه لا يملك كلفة الزواج !

ومطت شفتها بازدراء وتابعت خطابها لنفسها

ـ الذين يصرون على تكاليف الزواج هم الاغنياء ••• فاذا كانت الزوجة راضية بزوجها ••• فليلبسها جنفاص ••• لينام معها على الارض ••• هذه مسألة بين زوج وزوجته ••• لا أقف أمامها •

وظلت تنتظر ••• بترقب جميل حالم ••• وقبل أن ينتصف النهار جاءها نعمة على غير عادته ••• لقد لمحت قامته الطويلة تتخطى عتبة الدار ••• وسترته تتدلى من على كتفه ، فنهضت اليه مسرعة ، وقادته الى الايوان • وجلس على الصندوق الاسود فى أول الديوان ، مطرقا يحرك ساقه المتدلية •• فطوقته بنظراتها المتسائلة ••• ورأت شفتيه الذابلتين تغطيهما زرقة غبراء • وقال وهو يرفع عنقه بعدم مبالاة

ـ لقد أضربنا ! •••

فاجتاحت اعصابها المتوترة هزة مفاجئة ، وشد قسماتها توتر قاس ، وند من شفتيها صوت كالهمس

ـ أضربت ؟!

فرفع جسمه من فوق الصندوق وقال بحماس

ـ نعم أضربنا ••• وتلك وسيلة مشروعة لنيل حقوقنا ••

فكورت نفسها كالقنفذ ، ونظرت الى قامته الهزيلة ووجهه الشاحب وعينيه القلقتين ••• وغمرها شعور كئيب كريه فقالت ببطء

ـ كأن نفوسكم زائدة عليكم ••• لا تعرفون كيف تتصرفون بها ••••

فنظر اليها بحدة وصاح

ـ اليس من حقنا ••• أن ندافع عن أنفسنا ؟

ـ وبهذا الشكل ؟ •••

ـ أوه ••• لا تحسبيه عملا خارقا للعادة ••• عملا منافيا للقوانين ••• هو أسلوب مسالم لاجابة مطالبينا •

فنظرت اليه بدهشة ، ولم تدرك شيئا مما يقول ••• فأحست بشيء من الفوضى يشيع فى اعصابها وخيل اليها أن معاول ضخمة تهشم كل ما بنته ••• فقالت بتوسل

ـ ولم تدخل نفسك فى مأزق ••• أنت رجل بسيط ••• اذهب فى طريقك وتعال منه ••• ولا عليك مما يعمل الناس ••

فغاضه كلامها وأجج فى نفسه نار الثورة فصاح فى وجهها

ـ ماذا تظنين ... أنحن نعمل عند أوسطة ابراهيم ؟!

فأحست بضيق وهو يذكر مخدومها ، وبشعور موحش .. وتابع الشاب حديثه وهو مستند الى العمود الخشبى وسط الايوان

ـ نحن العمال لسنا على غرارك ... وان كان كلانا أجيرا ... أنت لا يهمك حين تطرد احدى رفيقاتك .. أو جميعهن .. لانك لا تحسين بأى نوع من الرابطة بينك وبينهن ... وهن يحملن لك نفس الشعور ... شعور بعدم المبالاة ... من يدرى! فقد تكن لا تشعرن بشىء اسمه المستقبل ... لانه بالنسبة لكن شىء مجهول أو معدوم ... فمن يضمن الا يتحول أوسطة ابراهيم غدا عن صناعته ، أو تدخل البلاد مصانع ميكانيكية للغزل تنسف كيانه نسفا .

وتململ فى مكانه وازداد توقدا وحماسا وهو يقول

ـ ولكن ... نحن العمال ... لنا مستقبل يهمنا أن يكون مضيئا سعيدا جميلا ... وكل الانتكاسات التى تصيب واحدا منا أو جماعة معينة تؤثر فى مستقبلنا ... لهذا فنحن نهب كتلة واحدة حين يطرد أى عامل منا ... لاننا عند ذلك نتعرض كلنا للطرد فى يوم من الايام ... حسب مشيئة غيرنا ....

وتنفس عميقا قبل أن يقول :

ـ لقد أضربنا ••• لانهم طردوا ثلاثة منا ••• وسنظل مضربين حتى تجاب مطالبينا •

وظلت هى صامتة لا تدى احتجاجا ••• فقد أحست بان الافكار تفر منها هاربة ••• فقد ذابت فى أعماقها الحدة والغيظ ••• وتلاشت غيوم الخوف من سماء نفسها ••• وأصبح الامر واضحا أمامها وضوحا موحشا ••• فتطلعت اليه باشفاق ورثاء •• فرأت شفته تهتز اهتزازا خفيفا فغمرها عطف عميق •• وأحست بشبه كبير بينه وبين ابنها ••• باندفاعه وعاطفته المتأججة حتى لخيل اليها أنه هو أبنها ••• لقد وقف أبنها قبل شهور بمثل هذا الموقف ••• وعلى هذه الهيئة يزمجر محتدا ••• فأحست بارتياح ••• وأمحى من صدرها كل قلق ••• وتطلعت اليه بحنـــان ملتهب ••• ونهضت تقترب منه •• وودت لو تأخذه باحضانها •

بيتُ الخنافِس

كان وجهه المتغضن يتصبب عرقا ، وعيناه الصغيرتان ترسلان نظراتهما المتقطعة من تحت جفنين متصلبين كقشر اللوزة ، ويداه تمتد عبر البخار المتصاعد فى حركة دائبة ... أما كرشه فكان يقبع بعدم اكتراث الى جانب القدر الكبير ... كقط هارب من لذع البرد !

ومع ان العربة السوداء كانت تختنق ، ويتعرض جسمها المهترىء الى هجوم من شتى الجهات ... فانه كان يصرخ من حنجرة رطبة ... فتتلاشى الفتحتان الصغيرتان اللتان يرى فيهما عملاءه ... وتفغر فتحة حمراء أسفل أنفه .. ويخرج الصوت فى حشرجة وامتعاض

ومع أن الاصوات حوله تناديه بحدة ، والايدى تقعقع بما تحمل من صحون ... كصرخات احتجاج موجهة ضده .. فانه كان ينعم بهدوء بال ورخاوة اعصاب ... فلا يتأثر بما حوله ... ولا يعبأ بمباراة الصراخ المحدقة به .. فيظل يعمل بآلية ، ويلبى الطلبات بخفة صبى ... وبين الحين والاخر تبدأ الحنجرة تتشنج ، والفتحة الحمراء تظهر ، وقشرا اللوزة ينطبقان ثمنا للفظتين متواضعتين

ـ ماء لحم ... !

وبعد لحظات سمع صوت تحد أجش ينبعث من الجانب الاخير للطريق :

ـ عباس عجمى ... انهدم بيتك !

فتلقاه بعدم اكتراث ، ولم يهتز عصب فى جسمه ... حتى عاد الصوت من جديد أكثر قوة وحنقا

ـ قطعت رزقنا ... الله يقطع رزقك !

فرفع وجهه المنتفخ ورمق ناحية الشارع المقابلة له بازدراء ثم انكب على عمله ثانية حتى سمع الصوت مرة ثالثة يهدر بعنف وأحس بالعربة تهتز من تحت كرشه المرتمى فيها كشىء مهمل ... فرفع جفنيه بتثاقل وألم ، فرأى رجلا طويل القامة مكفهر الوجه يلوح بيديه مهددا .. فوضع عباس صحن « الثريد » على طوار العربة ... وتقدم اليه خطوة وقال بلهجته الاعجمية المهشمة

ـ انت ... بابا ... شيريد منى ؟

فاهتزت قسمات الرجل وصاح بغيظ

ـ أريد ... أخذ عمرك ... لو جئت مرة ثانية الى هنا ... لفريت بطنك ...

فقال عباس وهو يرمق جمع العمال المحتشد حول العربة

ـعجيب ! ... انا هنا قبل أن تأتى الى الدنيا ... المحل

محلى ... والعمال أولادى ...

فضرب الرجل العربة بقبضة يده وقال بسخرية

ـ أولادك ! .. وتبيع رغيف تشريب بخمسة وعشرين ... الله يقصف عمرك ... ماء حار وخبز ... ألا تخاف اللـــه .

وسرت همهمة بين العمال .. واهتز نصف عباس الاعلى بعصبية ولوح بيديه

ـ أنت محامى العمال ...

ـ محامى ونصف ... انت رجل اجنبى .. لماذا لا ترجع الى بلادك ؟!

فارتجفت أساريره اللامعة من لفح البخار وقال بعد أن أرخى حزامه على كرشه المتدلى

ـ انت دائما ... تقول مثل هذا ... أ أنت حكومة ؟!

وارتفعت ضحكات متقطعة من حوله بعثت فى نفسه شجاعة وحدة .

فتابع قوله بغضب ظاهر

ـ كل يوم تقول هذا .. عيب .. لو كنت رجلا شجاعا لقلته للذين ينهبون النفط .. والتمر .. وكل شىء .. أنا رجل فقير .. لو مت لبقيت جنازتى بغير كفن .

وتعالت أصوات احتجاج ضد الرجل المديد القامة المطل

على الجمع بحقده المتأجج .

كانت ساعة الغداء قد أوشكت أن تنقضي ، وأنتشر العمال في الطريق القصيرة الموحلة الممتلئة بالاقذار ، يتربعون على الارض السوداء ، بعد أن فرغوا من تناول طعامهم ، واسترخوا باجسامهم العابقة بلون التبغ النافذ .. وغير بعيد عنهم ... في الجانب الاخر من الطريق ... بركة ماء مستطيلة تنبعث منها العفونة بقوة ، وتتزاحم أسراب الذباب حول أكوام الاقذار المضطجعة على حافاتها ...

كان جو تموز الخانق يصلي الارض شواظا .. والهواء قد فقد الحركة ، وتحول الى كابوس يضغط على النفوس ، وينتزع راحتها ؛ يتنفس الناس لهبا مذابا ... وكانت البركة ترسل زفراتها النتنة باستمرار وكأنها تحس بعذاب الذين من حولها ... وتقتحم الرائحة الصارخة الانوف ؛ فتبعث الدوار في الرأس ، وتشيع الجفاف في الحلقوم .

وعندما دعا جرس المعمل العجوز العمال الى العمل معلنا انتهاء فترة الغداء كانت قدر عباس ما زالت فيها كمية غير قليلة من الماء الاصفر ، وكان الرجل الطويل القامة ما زال ينظر اليه بشزر خلف موقده وقطع الكباب المتجمدة تتناثر على سطح مقلاته سندويجات البيض الثلاث ، وفرغ اناء الطرشي أو كاد وتبعثر النظام الذي كان يسود صفوف البطاطس والطماطم والبيض

وهى تقف بتراص على حافة الصينية الخشبية .

وأخذت الباب الصغيرة القاتمة تبتلع بشره جموع العمال حتى اقفرت الطريق الا من نفايات الطعام وأعقاب السكاير وأوحال البركة المزمنة ، والاقذار المنتشرة على غير نظام عبر الرصيف الضيق الجانب وفى الحوافى السوداء المنتنة ، وتحت أقدام الصفائح المعدنية الصدأة المنتقبة المنتصبة القامة بجبروت كاذب ... بعد ان لفظت الانسام أنفاسها الاخيرة فى وهج الشمس اللافح .

وقرب ناصية الشارع الغارقة بالوحل وقفت العربةالسوداء باسترخاء كان الجو المتوهج هشم قوتها ، فأسندت العجلة الامامية الصغيرة جسمها الى احدى الخشبتين المربوطتين بها ، وجلس سيدها بجسمه الممتلىء بشيء كالورم الى وعاء كبير للماء يغسل الصحون الملوثة ببقايا الخبز المطلى بالكركم وهو يلهث لهاثا مسموعا ، والعرق ينحدر من اسفل رقته الغليظة الى الخندق العميق الغور الفاصل بين أكمتين من اللحم تحتلان صدره مخترقا الشعر الكث كسيقان نبت تعانى سكرات الموت ، ويسيح على كرشه الناتىء كبطن حبلى .

وبين آونة واخرى كان يرفع رأسه الضخم ليلقى نظرة متلهفة الى الطريق المبسوطة أمامه .. كأنه يرقب أحدا ..

* * *

وكان الذى يترقبه ـ اذ زال صريع فكرة ملكت زمام نفسه، وتخايلت أمامه منذ الصباح برفرفتها النورانية •• ولما عاد من الكلية الى البيت كانت تراوده بجاذبية طاغية ، وتسوح به فى فضاء رحب من الخيال •• ويوم أمس كانت معه تخضل نفسه بالقلق الندى فقضى المساء كله فى عمل دائب ، ينتقل من محلة الى أخرى ، ومن بيت الى آخر باحثا عن غرفة جديدة •• بايجار معتدل •• حتى عثر على بغيته فى أحد بيوت النصارى •• غرفة متواضعة صغيرة تطل الشمس من نافذتها فى الساعات الاولى من النهار ، ويفرش الطابوق أرضها • فقنع بها وصمم على الانتقال اليها مهما كلفه الامر •• فقد ضاق ذرعا بغرفته التى عاش فيها ستة أشهر هى المدة التى قضاها فى بغداد بعيدا عن أهله لقد امتلات رئتاه بهوائها العفن ، وسئم الحياة مع خنافسها الكثيرة وجرذانها القليلة الحياء •• وتراب سقفها المبثور •• لقد بدت له الحياة فيها كالسجن فى جب تعيش معه الوحدة والكآبة •• والضجر المرعب كرأس الافعى •

وفى صباح اليوم كان كل شىء قد تهيأ فى خياله •• شعور بالتقزز من بيت الخنافس •• وغرفة جديدة تفتح ذراعيها لاستقباله ••• ولهف عنود للانتقال اليها ! •• شىء واحد بقى مستعصيا عليه •• هو اذ يحصل على مبلغ من المال يدفعه ثمنا لايجار الغرفة الجديدة ! فقد انقضى أكثر الشهر ، ولم يبق لديه غير جزء ضئيل

من الايجار •• فلا بد له حين ينوى الانتقال الى هذه الغرفة من الاستدانة •

ولكن من أين ؟ ••

استعرض جميع معارفه واحدا بعد آخر •• وطاف خياله بين أصحابه فردا فردا •• حتى ركن الى شخص لاح له كأرض خضراء فى صحراء حيرته • فتصوره وافقا بجسمه الغليظ ، وعمامته القذرة المتهدلة الى أذنيه ، والابتسامة البلهاء تكشف عن اسنان سود ، ولثة حمراء قرمزية فهمس فى نفسه بمزيج من الرأفة والابتهاج

ـ عباس ••• ؟!

وفى غرفته كان خيال عباس معه يتطلع اليه بنشوة

كانت الغرفة مظلمة على الرغم من النور المشع فى الدنيا خارجها كدهليز طويل مقفل الجوانب •• جدرانها الجرداء يبدو طابوقها المصنوع من الطين كعظام حيوان متحجر •• وكانت صفوف الطابوق واضحة يفصل بينها خط مظلم تتخلله ثقوب كثيرة كمحاجر عيون ذاهبة •• وكان السقف الواطىء تمتد خلاله الاعمدة الخشبية الملتوية كأضلع ضخمة ، وقد بد الحصير الجاثم فوقها كريه المنظر ، أسود ، منفرا تتدلى بعض اجزائه المتآكلة المنخوبة كأحشاء منقطعة

ولما تخطى العتبة الخشبية صدمته رائحة الظلمة العفنة المشبعة

بالرطوبة كظلمة الدهاليز التى يدفن فيها الموتى •• فالقى جسمه المنهوك على السرير الخشبى المقابل للباب ، والمجاور لمنضدة طويلة وضعت تحت قوائمها بعض الاحجار لتكون أكثر ارتفاعا من السرير •• وشبك أصابعه تحت رأسه وتفرس فى السقف الصامت يطل عليه ببلاهة

ـ أيها السقف البشع كجلد انسان مسلوخ ••• سأودعك الى الابد !

قال هذا فى صوت خافت ، واسترخى بلذة كقشعريرة رطبة على الفراش البارد فلاح أمامه خيال عباس منتفخ الاوداج ناتىء البطن •• بثوبه الازرق المفتوح العنق يكشف عن ثديين صغيرين متهدلين كثدى عجوز •• فتأمله بنشوة كما يتأمل الانسان قطعة أثرية غريبة الصنع •• وتذكر أول لقاء له معه حين ذهب اليه يستبدل قطعة نقد ورقية بغيرها من القطع المعدنية •• وكانت عربته رابضة على بضع أمتار من بيت الخنافس •• فرآه فى حيص بيص • يتعثر ببلاهة فى الصحون المبعثرة على الارض ، ويدور حول العربة كالثور ، ويتمتم بكلمات لم يفهم معانيها بصوت متهدج معتوه •• والوجه الشمعى ذو البقع الحمراء يكاد يتشوه وتتلوى تقاطيعه من العرق اللزج ••• والعينان الخافتتان محبوستين فى اطارين من الاهداب الوطف المتراكم عليها القذى ••• والوجنتان المكللتان بقطعتين من اللحم البارز يقبع الانف الاقنى

بينهما •• والفم المعدوم الشفة ذو الاسنان السود • لقد رفع وجهه اليه اذ ذاك ولوى تقاطيعه بتضرع والصق ابتسامة على فمه وقال

ـ عندى بعض الحساب •• تكسب أجرا من الله لو عملته لى :

فهز رأسه موافقا ، واخرج عباس ورقة عليها بقـــع الدهن الاصفر وكان منظرا مضحكا طريفا حين كان عباس يتذكر اسماء العمال

ـ على مطشر •• ثلاثين فلسا •• كاظم جواد ٢٥ فلسا •• و •• و

ويهرش رأسه بقوة ، ويلوح اجهاد التفكير على محياه ، وتتدلى عمامته على جبينه ثم يصيح بفرح

ـ ها •• عبود الصافى ٣٥ فلسا ••

ثم يطرق بعد ذلك منزعجا ، ويمسح يديه بفوطته ، ويحاول أن يزرر جيب قيمصه •• ويقول بعصبية مضحكة

ـ أنا حمار •• أنسى بسرعة •• لم يمض على خروجهم نصف ساعة •

ثم يحتد ويهتز كرشه ويقول

ـ ثم يقول الناس أنت تربح •• أربح من أين ؟ •• من مثل هذه الذاكرة القذرة •••• أوه •• لعنة الله على مثل هذا العمر الوسخ ••

ثم يستدرك قائلا :

ـ أنت لو رأيتهم وهم يتزاحمون على العربة لقلت .. لو كان في رأس عباس خمسمائة دماغ .. لما تذكر من الذى أكل .. ومن الذى لم يأكل ..

وفى اللحظة التى تركه فيها كانت نفسه تتلــوى من الالم والاشفاق .. وفى غرفته ظل ساهما يفكر فى تلك الكتلة الضخمة من البلاهة المعذبة تصارع مشاكلها بسيف من الخشب ، وتبــذر غضبها بغير هدى .. هنا .. وهناك

ومن ذلك اليوم اعتاد عباس عجمى أن يرقب الطريق . حتى يراه مقبلا الى بيته .. ثم يتريث قليلا قبل أن يطرق باب الغــرفة ويجلس على حافة السرير ، ويمتاح بئـر ذاكرتـه الناضب يتذكر اسماء العمال

ـ عبد الستار افندى .. انت مثل ابنى .. الحياة صعبة لمن عنده أولاد يأكلون ولا يشبعون .. لكن ماذا أقول ؟ .. الحال لازم أن تصلح ... غير ممكن أن تبقى الحياة على هذا المنوال الى يوم القيامة ..

ومضت أيام زادت الرجلين تعاطفا ومحبــة .. وجاءت أيام لم يأت عباس عجمى وحده الى غرفته .. ولكن صحنا مليئا بالثريد أصفر كالكهرم جاء معه .. فيضعه عباس على المنضدة ، ويهرش كرشه ، ويرقب عبد الستار وهو يقول :

ـ ما هذا ؟ ... انا تغديت .

فينفرج الفم عن ابتسامة مبتسرة ، ويجلس عباس عجمى على حافة السرير ويرفع كتفيه الى فوق بثقل ويقول

ـ هل أنا شاريه •• حتى تقول مثل هذا القول •• هذا من رزق الله

وسرت فى جسم عبدالستار دغدغة لذيذة حين وصـــل فى ذكرياته الى هنا فهتف فى نفسه :

ـ أوه •• عباس عجمى •• ان جلدك لا يضم لحما ودما •• ولكن طيبة وسذاجة •

وهنا رفع جسمه فجأة بعد أن شعر بالزمن الذى قضـاه فى تهويمه الطويل •• وألقى نظرة الى اعماق الغرفة حيث ترقد أكوام التراب الدقيق المتساقط من صفوف الطابوق •• وأحس بأن عباس قد تأخر عن موعده المعهود •• فنظر الى النور خارج الغرفة بقلق •• وأنبجس فى نفسه ينبوع آسن من الظنون •• لم لم يأت عباس حتى الان ؟ •• أوقع له حادث •• أم ماذا ؟ ••

وشيئا فشيئا خفت النور خلف الباب الموصدة ، وبهت لونه على نحو يقبض النفس •• وعجز خصاص الباب عن نقل لون الغروب الحائل •••

ولما طرقت بابه كان الليل قد سد نوافذ النور !

وعندما فتح الباب رأى كرشا وراءه عباس عجمى فهتف :

ـ عباس •• اهلا وسهلا

فدفع عباس ساقه متخطيا العتبة الخشبية الناتئـــة وهو يلهث لهاثه المعهود •• وجلس كعادته على حافة السرير دون أن ينبـــس بكلمة وفى ضوء المصباح النفطى رأى عبدالستار وجهـــه المتفخ تتشابك فيه الظلمة والنور ، وبدت فتحتا عينيه الكليلتين أكثر وضوحا واتساعا ، وصدره يعلو ويهبط بصورة غير طبيعية •• فحدق به قليلا وجلس الى جانبه بهدوء ، واسند مرفقه الى المنضدة في جهته اليسرى ، والقى نظرة أخرى على القسمات الشمعية البلهاء فرآها فى صمتها الراكد تومض بخفوت على الضـــوء الشـــاحب فتمتم بشيء من الاضطراب :

ـ ألم تأت بدفتر الحساب ؟

فتحرك الفم العاطل من الشفة :

ـ •••• لا ••

ثم انطبق ثانية ببرود ظاهر •• وساد صمت يوتر الاعصاب شعر عبدالستار خلاله بأن شيئا ما قد حدث •• شيئا مقبضا للروح على نحو مخيف •• وبعد لحظات قنوط سأله :

ـ ما بك ؟

فصر السرير الخشبى من تحت عباس ، وحرك جسمه الضخم حركة خفيفة :

ـ ألا يكون الموت أشرف للانسان من حياة حقيرة ؟!

فتحرك فى نفس عبدالستار شعور قاتم كأعماق الغرفة فى تلك

اللحظة وقال :

ـ ماذا في الامر .. يستحق هذا التشاؤم

فأرسل عباس شهقة خافتة .. وسرى في قسماته خفق أحساس متهافت ولمع الجفنان القصيرا الاهداب وهو يقول :

ـ أنا .. بهذا العمر الكبير .. أليس عارا أن يضربني أحد ؟

فسأله بدهشة :

ـ أوه .. الفقير كالحمار .. كل من يملك عصا يضربه

وأحس الشاب بالضيق يملأ صدره بغازه الخانق فصاح به

ـ بالله عليك .. أفصح .. من الذي ضربك ؟ .. أفقدت الكلام ؟!

فقال بانفعال ارتجفت منه صفحتا خديه :

ـ صاحب البيت .. جاءني اليوم يهدد .. يريد مني ايجار خمسة أشهر .. سحقا لهذا العمر من أين أأتي بالفلوس ؟ .. نحن غير شعانين خبزا ... صاح في وجهي أنت اذا لم تترك البيت أرمي فراشك في الطريق .. أعندي بيت للفقراء .. أم تمبل خانة .. وضربني على وجهي أمام الناس ، ورمى عمامتي بالطين .. أوه .. ليتني مت تلك الساعة ... ولا أرى الجيران يضحكون علي .

ومسح أنفه بذيل ثوبه الازرق .. ومر بكمه على عينيه المنتفختين بتوجس ، واهتز صدره باضطراب وتشنج وحشرجة .. وخرج صوت عبرة مكظومة من خياشيمه بقرقرة .

ورانت على الشاب لحظات من الحيرة والجمـود ، ولاذت من رأسه كلمات العزاء فلم يقل شيئا •• وأختلس نظرة الى الرجـــل الجاثم فوق السرير •• كتلة من التعاسة الخرساء •• واعتملت فى نفسه عاطفة آسرة من الحنان ••• فربت على كتفه قائلا

ـ أوه •• عباس •• ليس لدى غير دينار واحد •• لو كان ينفعك فخذه •••

ومضت تلك الليلة ••• والليالى الاخرى ••• والشاب لم ينتقل من بيت الخنافس •

موت أمل

وقف بعض الوقت مسندا ظهره الى الحائط الترب ، وفكره يتمرغ فى اعتاب غرفة منفردة ، وخياله يتوثب بين جدرانها ، وعيناه تلتهمان المستطيل المضاء بنـور خافت ، والمطـــروح على الارض القذرة •• وداهم قلبه اضطراب وقلق وهو يرقب باب الغـــرفة ، ويرى الظل يبرز فوق صفحة المستطيل قليلا •• ثم يتضخم حتى يكاد يملأه •• ثم ينكمش ثانية •• وتبتلعه الغرفة فلا يلوح الا الرأس المدور المعدوم الرقبة •• ثم يخرج ثانية منحنيا كخيال دب ضخم كث الشعر يدب فى الضوء ، وتتسع جوانبه ثم يبتعـــد عن الشاشة الملقاة أرضا ••

وسمع دقات قلبه بوضوح فى الصمت الجاثم على باحة البيت المكشوفة ، وتريث قليلا قبل أن يتقدم خطوات نحو الباب ويفاجئه الصوت الاجش :

ــ مرهون ؟ ••• أهلا وسهلا

فأسند مرهون جذعه الطويل الى طوار الباب ، وأرسل بصره الى الغرفة ، فرأى العجوز ملتفة بردائها الاسود تدب زاحفـة فى أرجاء الغرفة الضيقة •• بين البساط الكالح اللون •• والحصـــير

المتآكل •• والموقد يتوسطها تلتهب ناره وترسل دخانا أزرق ••
فقال :

ـ أظن خيرية لا تأتى هذا الاسبوع •• أيضا

فأجابت العجوز بتلعثم وخفوت

ـ لست ادرى ما جرى لها •• اننى قلقة ••

فعصرت قلبه كآبة طاغية •• وأضطربت شفته العليا ومال نحو الغرفة وهو يقول :

ـ والنهاية يا أم خيرية ؟! •• ألا ترشدينني الى رأى ؟!

فرفعت وجهها الاسود الهزيل الكثير التجعدات وكفت عن الحركة برهة وقالت بشيء من عدم المبالاة :

ـ وماذا بيدى ان قلبى يلتهب نارا

فهز رأسه الصغير وقال بلهجة تأنيب :

ـ لو كنت كذلك •• لسألت عنها وقد مضى أكثر من شهر وهى بعيدة عنك •

فأسندت رأسها الى الحائط ، وأحتضنت يداها المتشابكتان ركبتيها وقالت :

ـ ماذا بيدى ؟

فأنفجر ساخطا وضرب الارض بقدمه حنقا وقال وهو يشير اليها بيده :

ـ أنت تظنين أننى لم أهيىء الفلوس •• أنت لا تعرفين شيئا فى

الحياة غير الفلوس ...

فقاطعته بلهجة حادة :

ـ من يسمعك يظن اننى سأضعها بكيسى .. أوه .. هذا ليس انصافا .. خذها بعباءتها .. اننى لا أطمع بشيء ..

وسادت لحظات صمت .. وأنبعث من الموقد دخان متثائب .. فأسندت كوعها الى السرير الصغير بجانبها .. وترجرجت النار وتماوجت على وجهها المعروق .. وبدت بارزة خطوط ثلاثة سود فوق وجنتيها .. وخنادق تحت وجنتيها وفوقهما .. وقال وهى تمط شفتيها بكبرياء فجة :

ـ من يدرى .. لعل أهل عمها منعوها من المجيء

فأحتد الشاب وصاح :

ـ أهل عمها .. أهل عمها .. أهم اشتروها ؟!

ـ اللقمة تراد .. ماذا كنت أصنع لو كانت هى بغير عمل ؟ ..

ومضى يجادلها .. وفى اعماقه توقدت جذوة من الثورة المستعرة خلفها حرمان جاف وعر ، وصبر طويل العنق .. فقد قاسى كثيرا حتى لم يعد فى نفسه موضع لقسوة أخرى .. وقضى وقتا طويلا وهو يحلم بها حتى تحول حلمه المتكرر الى كابوس .. وفى كل يوم خميس كان ينتظرها فى لهفة محرقة ، وشوق متوثب .. فتدخل البيت كنفحة عطر هبت من عالم غريب .. وهو جالس غير بعيد عن غرفتها ينتظرها متكلفا عدم المبالاة .. حتى اذا مرت أمامه ،

وعبقت فى نفسه رائحة انوثتها النافذة ، رمقها بنظرة حنين جائع ، وتحول لسانه الى قطعة من العظم لا يتحرك ..

غير انها انقطعت عن المجىء فجأة .. ومرت عليه أيام الخميس كئيبة موحشة شعر فيها أن حجرا ثقيلا يهبط على نفسه فلا يستطيع أن يتنفس الا بجهد .. وفى بعض الليالى كان يأتى الى أمها يحدثها عما كانا قد اتفقا عليه .. فتقول له « فلوس » .. أيمكن لامرأة أن تنام على الحصير ؟ .. اذا أردت أن تتزوجها .. فدبر لك مهرا » .. وقد ظل يبحث عمن يقرضه شيئا من المال حتى وجده بعد جهد جهيد .. غير انها بقيت فى غيبتها المريبة حتى ضاق ذرعا .. فجاء الى أمها يفرغ بعض ما فى نفسه من قلق ولهفة فما زال معها فى حديث حتى أعطته عنوان مخدومها .. فمضى وهو مصمم أن يضع حدا لعذابه .

وفى طريقه اليها كان يفكر فى ما يقول لها .. فى اللهجة التى يصطنعها .. وكان يتصورها مرة على شرفة قصر مترف فى قامتها الممتلئة البضة تطل بترفع وكبرياء ، وتتهدل احدى ضفيرتيها على نهدها البارز ، وتنساب الثانية على ظهرها ، وتبرق عيناها الواسعتان بشىء أخاذ كان يحرق صدره ويسكر عاطفته ويتخيلها تسرع اليه وهى تصيح

ـ مرهون .. مرهون .. لقد كنت على وشك أن أأتى اليكم

فيعاتبها برقة

ـ خيرية ••• لقد راقت لك حياة القصور •• فمن نحن •

فتتكلم عناها ، ويتماوج فيهما السواد المعتم بالبياض الناصع••
فطرد هذا التصور من فكره حين يراه غير معقول بعد أن يتذكر كلامها المقتضب معه ، وتهربها منه ودلالها المتعجرف ••• فتخلق في فكره تصورا آخر فيخاطب خيالها الماثل أمامه

ـ لماذا غبت هذه المدة ••• ان والدتك لشديدة القلق عليك

فيمط الخيال شفتيه الممتلئتين ، وتتحرك رقته العاجيـة الدافئة لترمى احدى الضفيرتين الى الوراء

ـ أوه ••• أ أنا طفلة ••• أم لناس اصبحـوا فى غير أمان ؟!

ـ المرأة مهما كبرت فهى كالطفلة يخاف عليها •

ـ كان الناس ما خرجوا وما ساهموا فى الاعمال •••

فتمتزج المرارة بالألم فى صدره ، ويلهب أضلعه شعور حاد

وزواجنا يا خيرية ••• أنسته ؟!

وهنا يصاب خياله بالكساح فلا يعرف بماذا ستجيب ••• فيهز رأسه لطرد ركام هذا التصور المغض ••• وينهض فى فكره تصور آخر أشد منه قتاما فتلوح له خيرية فى ثوبها الازرق الضيق تبرز مفاتنها صارخة ، وحولها عائلة مخدومها على كراسى وثيرة فى الشرفة المطلة على حديقة غناء •• فيراها من خلال

قضبان الباب الحديدية ، فيدب الخدر فى جسمه كاسراب هائلة من النمل ••• وينتظرها على الباب ••• من غير أن يتكلم ••• الا أن ضحكات ساخرة تترامى الى أذنه ، وتنهض خيرية غاضبة ، وتغيب فى أعماق القصر ••• فيضيق من تصوره ، وينظر الى بنطلونه الكالح يتهدل على حذائه الاسود الوسخ ، وسترته القصيرة الاكمام المنكمشة على نفسها تكشف عن ثوب مجهول اللون ، ويتلمس بيده وجهه الهزيل ورقبته الطويلة ، وشعره الجعد ••

وبعد افاقته لاح له الشارع العريض الانيق يمتد الى ما لا نهاية •••

كان الليل قد بدأ يرمق تلك الاحياء الحالمة بطرفه الكحيل، ونسائم ايلول تتفاوح رقيقة كلمسات شفاه غير منظورة وبدت لعينيه النخيل وأشجار الحدائق وسط الظلمة الباهتة كظلال حوريات ••• ولما أوغل فى الشارع وابتعد عن صخب المدينة خيل اليه ان وزنه يخف ، وان رجليه تتلمسان طريقهما بخفوت ••• وداعته نسمة حنون تهمس فى روحه بعذوبة كالفاظ الغزل ••• فشف جسمه وتلاشى ، وبرزت روحه الرقيقة المنسحقة ترفل فى ثوب سابغ من الخيال ••• فيشرق أمام مخيلته عالمه الجديد ••• وهو مع خيرية فى سرير واحد يتمرغان فى دفء ولذة محمومة ، وينزلق جسده الهزيل العظمى على جسد كالزبدة ، ويرتمى أى عضو من جسمه على رخاوة

ونعومة مرفهة ... فتتراقص الغبطة فى جسمه ، وتفيض السعادة على اساريره بحيث لا يستطيع أن يتحملها .

ـ أ أنا أهل لكل هذه السعادة ؟ .

ولا يجسر على الاجابة ... بلا ... أو بنعم ... الا أنه تذكر أشخاصا غير الزواج مجرى حياتهم ... « عبود البلخى » ... زميله فى معمل واحد ، كان وجهه المجدر بشعا كالخيانة ... وجسمه الغليظ قذرا كالبالوعة ، وثيابه مهلهلة كعقل مجنون ... فلما تزوج أخذ يتخايل فى وجهه اشراق ولمعان ، وانبعثت من جسمه وثيابه رائحة الصابون .. وغيره كثير .. رأوا المصابيح التى تنير مسارب حياتهم وتخلقهم خلقا جديدا .

وبدأ القمر يرسل ضوءه فى الفضاء الرحب أمامه ، وتلوح المساحات المضاءة بنوره بعيدا عن سلطة الضوء الكهربائى كقطع من القماش الازرق الباهت مبسوطة على الارض الخضراء .

وفتش عمن يسأله عن البيت المقصود فرأى غير بعيد منه دكان مكوى فسأله عن رقم الدار فرمى الشاب المكوى من يديه وقال

ـ انه رابع بيت بعد هذا الشارع .

فقفز الساقية أمامه ، ومضى يعد البيوت حتى وصل الى البيت الرابع ووقف عند الشجرة الكبيرة المائلة ببابـه كعملاق يحرسه ، وتطلع اليه وهو يرقد فى احضان حديقة واسعة ...

وسره أن يرى بعض نوافذه مضاءة ••• وفكر قليلا في الامر أيجمل به أن يطرق الباب وهو فى هذه الهيئة المزرية كشحاذ طريد ؟! ••• ماذا ستقول له حين تراه بهذا الشكل ؟!••• أمن الممكن أن تنكره وتتجاهل وجوده كما كانت تفعل فى بعض الايام وهى فى زينتها

ـ خيرية ••• أنا مرهون ••• ألا تعرفينه ؟

ـ مرهون ؟ ••• مرهون من ؟!

فحترق كالخشبة اليابسة وهو يتخيلها تحدق فيه بعيبيها الواسعتين النجلاوين •• نظرات نافذة تهبط كسهام على روحه المعذبة ••• فيقول لنفسه

ـ لا ••• سأنتظر حتى مطلع الفجر •

وهبت نسمة تداعبه كأنها رسول عزاء وسلوة ••• وسرى فى تضاعيف الليل المطرز باضواء المصابيح وبلون القمر الفضى عبق مفواح ارسلته الشجيرات المحيطة به من كل جانب •• وهو يرقب القصر الغافى وجذعه الطويل مستند الى أحـد أعمـدة المصابيح الكهربائية •

ثم أخذ يحدث نفسه فى وحدته

هنا •• وفى احدى الغرف تعيش خيرية فرحة كفراشة •• نشوى كزهرة فى صباح مشرق ندى •• تتحدث •• وتمرح •• وتضحك ملء شفتيها الممتلئتين كقطعتين من البنجر دون أن يخطر

ببالها ... الشخص الماثل بالباب كالطريد يحمل حبا مقصوص الجناح ...

وحانت منه التفاتة فرأى خيال امرأة فى غرفة من غرف القصر المطلة على الطريق ... فصفق قلبه بجناحين مضطربين

واشرأب بعنقه خلال السياج الحديدى القائم فى ظل الشجرة .. كأنه مجموعة من الحراب لجنود غير منظـــورين ... ورأى الخيال من خلال الشباك المسدل الستائر يخطر فى الغرفة بخفة وتثن .. فعرفها من مشيتها ... ومن تثنيها ... وقوامها الممتلىء المائل الى القصر

وذكر أنه لم يرها فى عباءتها الا مرة واحدة .. ومنذ أمد بعيد .. فقد اختلس النظر اليها اختلاسا ، وهو يهم بطرق الباب ... ففاجأته فى المحاز العريض منحنية الى شىء تلتقطه .. وأحست وجوده خلفها ... فهربت مذعورة متعثرة بحيائها ... وانطبع خيالها فى فكره .. ولكنها تبدو الان قد خلعت عذارها ، وكشفت عن مفاتنها مرة واحدة ... فأخذه العجب ! .

وتسلل من خلال فتحة الباب الضيقة ... وسار فى الممر الموصل الى بناية القصر على اطراف اصابعه .. وانحرف قليلا نحو اليمين ... ووقف قليلا تحت الشباك المرتفع عن قامته ... ريثما يهدأ خافقه من التوثب ، وتعود اعصابه الى الهدوء ... وفاجأه انطفاء الضوء ... فهمس فى عجل

ـ خيرية ••• خيرية •••

وساد صمت قلق ••• وجمع الخوف من أن تفلت الفرصة من يده حطام شجاعته ، فرفع صوته بعض الشيء ••• ثم سمع فى الغرفة خفق خطوات مضطربة وأشبه شيء بصرخة مكظومة، فارتاع ••• ومن أقصى يساره أنعث صراخ كلب مزق الصمت شر ممزق ••• فتسمر فى مكانه لا يريم ، وداهمه خوف قانط حين سرت فى القصر حركة غير اعتيادية •• وفتح الباب الكبير وخرج رجلان بيد أحدهما بندقية ، وقفزا درجات عتبة القصر قفزا ••• وهجما عليه •

وسمع لفظة « لص ••• » تتكرر أمام أذنيه وتتضخم فى مخيلته وتستحيل الى وشوشة فى رأسه •• وتلقى ركلة آلمته ••• ولكمات أيد قوية انهالت عليه وصاح أحد الرجلين فى حنق

ـ لص ••• ونحن ما نزال مستيقظين ؟ ••• يا للوقاحة !

وسحبه الرجلان الى النور ، وتطلعا الى وجهه الاسود وهيئته المزرية وقال أحدهما وهو يصك اسنانه

ـ هيئة لصوص ••• اتصل بمركز الشرطة ••• الناس يحتاجون الى تأديب •

فوخزه كلام الرجل فرفع اليه وجها متشنج القسمات

ـ اقسم لك بشرفى ••• اننى شريف •

ـ أ أنت عندك شرف ؟!

ـ أو ....

وضغط الرجلان على جسمه ومنعاه من الكلام ... فنكس رأسه باستسلام قانط .. وخرجت فى تلك اللحظة امرأة مترهلة تتبعها فتاة فصاحت وهى توجه كلامها الى الرجلين

ـ ولماذا انتما واقفان ... اتصلا بالمركز ... هذا لا يطاق ... ويقولون فى البلد أمن !

فتحشرج صوت مرهون وقال بصوت مضطرب

ـ اقسم لكم بشرفى .. اننى جئت أبحث عن خيرية .

فركله أحد الرجلين وهو يقول

ـ خيرية من يا أغبر ؟ ... أليست لك حيلة غيرها ؟

ـ أقسم لك بشرفى ..

ـ شرفك .. شرفك .. ما أرخصه !

ـ اقسم لك بشرفى ...

وكانت المرأة المترهلة الجسم اذ ذاك تنظر اليه بامعان وتفكير ... وفترت حدتها فترنحت قسماتها المتوترة .. وقالت بتسائل واستغراب

ـ أتريد حقا خيرية الخادمة ؟

ـ أقسم لك بشرفى ... اننى ...

وخجل أن يقول أنه خطيبها .. فقال :

ـ ان والدتها قد ارسلتنى اليها ... والدتها ماهية ...

ألا تعرفينها ... أقسم لك بشرفى اننى غير لص ...

وتابع كلامه وسط صمت بارد باهت

ـ اننى ساكن معها فى بيت واحد ... وقد أقلق أمها أن تغيب مدة طويلة .

فهزت جسمها بحركة من يدها المكتنزة كساق صبى يافع وهى تقول

ـ ان كان مقصدك هذا حقا ... فقد سافرت خيرية مع عائلة محمود بك الى البصرة منذ أسابيع

وشعر وهو يسمع كلامها أن قواه تنهار كجدار قديم تفككت اجزاؤه ... ولم يسمع الجدل الذى دار بين الثلاثة حول مصيره ، فقد خيل اليه أن أى عقاب سينزل عليه لا يكون أشد ضراوة من هذا العقاب ... وبينما كان أحد الرجلين يقوده الى الباب .. كانت تعربد فى نفسه رغبة قوية ... فى البكاء .

صُورَة

استيقظ من نومه فزعا كأنه هب من حلم رهيب .. وطـوف بنظره فى أرجاء الحجرة الصغيرة فرأى الظلام ما يزال كثيفا ، ونور الفجر يتسلل بخفوت من بين خصاص الباب .. فأزاح الغطاء عن جسمه ووثب من سريره الى الشباك الصغير ففتحه فاندفع النور الخافت الى الحجرة حاملا لذع البرد ورطـوبة الجـو .. فأحس بقشعريرة تسرى فى جسمه العارى وتهز كيانه النحيف هزا فتناول الغطاء الممزق والتف فيه وجلس على سريره مرتجف الاوصال.. يرسل نظره عبر النافذة الصغيرة الى الدنيا من تحته فرأى الضباب يضفى عليها حلته الرمادية ويخفى معالم الاشياء ، وبدت له سطوح البيوت ، والازقة الضيقة من بعيد كفضاء ملىء بالحفر .. وخطر فى فكره خاطر ابتسم له ابتسامة شاحبة .. ان هذه الصورة الباهتة التى رسمها الضباب أشبه شيء بطريق حياته المملـىء بالعقبـــات والحفر ! .. وأشاح بوجهه عن تلك الصورة الى غرفته .

كانت غرفة ضيقة الارجاء ، منخفضة السقف ، جدرانهـا متآكلة سوداء من طول العهد ، يقبع السرير المنبعج الجوف فى احدى الزوايا ، وتتناثر الكتب على الارض فى فوضى واضطراب ، وعليها

طبقات من التراب ، مختلطة بقشور البصل ، ورائحة الزيت ، وبقايا الفول .

وتذكر أن عليه أن يخرج مبكرا قبل أن يستقظ الناس، فان اليوم لابد من أن يكون مشحونا بتكدير الخاطر ، وامتلاء النفس بالهموم ... فان عليه أن يدفع أجرة حجرته هذه المعلقة في سطح البناية ، وان يقفل فم البقال الذى لا يفتأ يغدق عليه أثوابا من كلماته الجارحة .

وتناول قميصه وبنطلونه من المسامير المثبتة على الحائط ، والتقط بعض الكتب من الارض ، وقفل باب حجرته فى حذر ، ومشى بتؤدة على رؤوس أصابعه كمن يخاف من شيء سيهبط عليه فجأة ، ودفع باب السطح بتوجس فأرسل مزلاجه الصدىء صوتا هز كيانه هزا ، وبعث اليه رعبا ، فانتفض كيانه وحاول أن يمسك به قبل أن يمزق السكون الحائم بصوته الاجش ... ودار فى نفسه أن الاشياء كلها تآمرت على اهانته وتعذيبه ، حتى هذا الباب الذى يعتز به كل الاعتزاز .

وأخذ يهبط السلم درجة أثر درجة ، ويده على قلبه ينظر الى أبواب الشقق لعل مغفلا يفتحها ، ويقرؤه السلام بصوت مرتفع ينبه صاحبة البيت ذات الجسم المترهل السمين وازداد وجيف قلبه وتوتر اعصابه عندما اقترب من باب شقة فى الدور الثانى ... هنا مركز الخطر ... رباه ! .. هلا رحمت هذا

الانسان التعس فجنبته موارد الفضيحة والخجل ، ونجيته من اللسان الذلق يرسل الشتائم مدرارا ، ويفيض الفاظا جارحة ••• ومر من الباب وهو يود لو يخلع حذاءه ، أو يطير فى الهواء •• وابتعد قليلا عن ينبوع الخطر ••• وفجأة ••• وقعت الواقعة ، وانفتحت الباب وبرز منها وجه عريض مدور وصاح

ـ يا استاذ ! ••• النهار ده كم فى الشهر ؟ •

فأرتج على الاستاذ وعاوده اضطــــرابه فأجاب بصوت مرتجف

ـ معلهش يا أم السعد ••• صبرك النهار ده حديلك كل حاجة • فأجابت محتدة

ـ بعدين معاك •• هو أنا عاملة ملجأ وله جامع ••• وله حاآكل هوه ؟

ونزل الدرج يتعثر ، وأقدامه تقرقع على البلاط باضطراب ومن غير نظام ولم ينظر وراءه كعادته كل يوم ليتمتع بالوجـه الصبيح الذى يملأ حياته المجدية أملا ، ويشرق فى أعماقه القاتمة بصيصا من تفاؤل ، ويهدى اليه شعورا عميقا بالارتياح ! ••• فانه اليوم منصرف عن التمتع بما يزخر فى حناياه من ألم •

وعندما اقترب من نهاية الزقاق عاوده اضطرابه ، وتمنى أن يكون ثمة نفق تحت أخمص قدمه يوصله الى الجهة الثانية بسلام بعيدا عن الحاج مصطفى ، وما يشيع شاربه فى نفسه من فزع

ورعب ، ولمح الحاج مصطفى مشتبكا مع امرأة فى صراخ ، وفى كثير من الحذر انفلت من عينى الحاج مصطفى الحادتين وتنفس الصعداء حين أشرف على الشارع ، واستقبلته نسمة باردة كأنها تهنئة بنجاته ورأى الترام على سابق عهده كسفينة نوح يترنح من حمله ويهز الارض هزا .

وفى طريقه الى الجامعة كان يحلم بشىء ينقذه من مأزقه .. حتى بدت له قبة الجامعة ومسلتها المرتفعة تسبح فى محيط أخضر فأنعش روحه مرآها .

ولم يجد فى نفسه رغبة فى الاختلاف الى المحاضرات . ونظر الى الطلاب نظرة حزينة كمن ينظر الى عالم محرم عليه الدلوج اليه وهرع الى ملاحظ الرسائل بلهفة وأمل ، وهو يدعو الله أن يحقق رجاءه فى رسالة تكون المفتاح الذهبى لمشاكله ، والنسمة العطرة تسرى فى عالمه الخانق .. ورأى ملاحظ الرسائل كرجل عظيم مهيب يسيطر على مقدرات الناس ويفصل بين السعادة والشقاء بكلمة ينطقها .. ووقف الى جانب مكتبه لا ينبس بلفظ حرصا على أن يتمتع بكل لحظة من لحظات الرجاء وتنتشى روحه من عبير الامل فى ترقب شىء جميل .. وحانت من ملاحظ الرسائل التفاتة فرأى صاحبنا فى غيبوبة ساهيا سابحا فى عوالم الحلم الجميل فقال بلهجة رثاء وقد عرف ما يريد .

ـ لا ••• والله يا استاذ مفيش •

واستيقظ « الاستاذ » من غيبوبته كمن أنزلت على قفاه صفعة شديدة ونظر الى ملاحظ الرسائل بوجوم ، ونقر نقرتين على مكتبه كأنه يريد أن يخفى الاضطراب الذى عم أرجاء نفسه •• ورجها رجا كما ترج زجاجة فى داخلها دواء مر • وأشار برأسه محيياً ورجع ناكصا على عقبه يحمل بين يديه أزهار آماله الذابلة •

وسار مطرقا تصل اليه أصوات رقيقة تداعبها أصوات خشنة ، وتطرق سمعه ضحكات آلمته لانه تصورها سخرية به واستهزاء منه ••• وسمع صوتا يناديه رقيقا غريبا على عالمه الخشن •• والتفت وراءه فرأى الوجه الذى كثيرا ما استرق اليه ، والذى لم يجسر فى الصباح أن يتطلع اليه لامتلاء نفسه بالمرارة

وابتسم ابتسامة خجلة ، ومد يدا مرتجفة ، فضحكت ضحكة اعتزاز وقالت له انها كانت تنتظره فى الصباح ! ••• لانها تريد كتابا رأته مرة فى يده ••• واسقط فى يده ، لقد باع الاستاذ هذا الكتاب فى يوم افلاس عنيف ••• ولكن ماذا يقول لها ؟ ••• أيفضح نفسه أمام أعز مخلوقة عنده ؟ فوعدها أن يقدمه له فى المساء •

كان كل شيء يحدث بسرعة وبشكل خارج عن ارادته •• فانه يعلم أنه لا يستطيع أن يجد لها هذا الكتاب ، وأنه لهذا لا

يرغب فى موعد يكون فيه فى موقف مضطرب ...

وودعته بابتسامة عذبة .. ولكنها كانت بالنسبة له سهما جارحا . ان هذه الفتاة لابد من انها مرسلة اليه من القدر لتعذيبه. لقد قضى طوال شهور اربعة ينظر اليها وفى نظراته كل ما يكن لها من حب ولكنها كانت تقابل نظراته بازدراء وتتجاهله تجاهلا تاما ... كان يسعى الى أن يجمل مظهره الخارجى ويخرج اليها بالشكل اللائق وان كان جسه أخلى من فؤاد أم موسى ومعدته ممتلئة هواء ... حتى اذا أفلس جاءته لتكلمه وهو يلاحق القرش لأى مطرح يطرح فيه ...

وفجأة مد يده فى جيبه وتلمس القرش » القابع فى احدى زواياه فارتاح لانه لم يضع حتى الآن .. ووقف مفكرا ان هذا القرش الملعون هو الاخر يعذبه .. لقد وقف حائرا .. معه ! أى شى أفضل له وأكثر منفعة أن يدفعه أجرة لذهابه الى القاهرة ، أم يدخره لساندويج من الفول المدمس ... واحس بجوع يصهر فؤاده فهان عليه طول الطريق وتعلل بمناظر النيل الجميلة ، والقصور الفخمة ، والسيارات الامريكية تخطف الشوارع خطفا ... وظل طول الطريق يفكر ، ويسبح فى عوالم جديدة خلقها خياله ... وبعد لأى لاحت له القاهرة الصاخبة ذات المبانى المرتفعة والشوارع المزدحمة ، والمخازن التى لا يدخلها الا من امتلأت جيوبه بأوراق البنكنوت ، وعبقت فى

أنفه روائح عطرية صادرة من داخل تلك المخازن ، ومن رفرفات الاثواب الحريرية التى تمر به مسرعة •• وانتشى من تلك الابهة المحيطة به ،والغنى الوافر من حوله •• وظل ساهما يطوف من غير غاية ، سكران من خمرة همومه ، تائها فى بحار سأمه ، حاملا مشاكل الدنيا كلها على كتفيه ••• ورأى مكتبة تعرض الكتب بشكل مغر جذاب ••• فخفق قلبه ، وصرف اليهـا فكـــره وحواسه •• ووقف الى جانب معرضها يقرأ عناوين الكتب ، ويستلذ بترديد أسماء من أحبهم من الكتاب والشعراء ، وتمنى أن يدخل الى المكتبة ، ويتربع على أرضها النظيفة الباردة لانه تعب جدا ، ولا يستطيع أن يزيل تعبه الا الارض يضطجع عليها ، ثم يمسك كتابا من تلك الكتب التى أحبها من أعماق قلبه وينغمر فى أجوائها ، وينتقل من دنياه القاتمة المرهقة الى دنياها العابقة بالشذى المسكر ••• وتذكر أنه جائع •• وأن الجوع يجعل فؤاده كطـائر مذبوح ، وأوصاله ترتجف ضعفا وخـورا ••• فقال فى نفسه لا بأس من رغيف خبز •• وماء مثلج يعين الفـم الجاف على ابتلاع الخبز من غير أدام •

وضحك من نفسه وازدراها لانها لا تتفنن الا فى الخيال وفى الاحلام ••••

وترك المكتبة وقواه منهارة ••• ورجلاه لا تستطيعان أن تحملا جسمه ••• ولمح من بعيد محلا للفول المدمس ، منزويا

فى ركن كثقب كبير مظلم الاعماق فسار اليه بخطى مضطربة ..
ومد يده الى جيبه مرة أخرى ليتيقن أن القرش ما زال صابرا
فى ظلام جيبه ... ودسه فى يد النوبى الواقف وراء القدر
الضخم تدور عيناه بحركة لولبية فى الوجوه المحيطة به ...
وتناول الرغيف الاسود المحشى بالفول ، وراح يقظمه بشراهة
غير ملتفت الى أنظار الناس وهى تحدق به ، ولا الى النوبى وقد
لمعت اسنانه لمعانا أبيض ناصعا ...

وعندما خرج من المطعم كان الليل قد أقبل .. وأقبلت معه
الكآبة والضجر .. وشعر بأنه فى حاجة الى نوم عميق ... فود
أن تطوى الارض أمامه ويصل الى غرفته دون تعب ولا منغصات
... غير أنه تذكر أن غرفته محاطة بالالغام ... ربة البيت
تنتظره وعلى لسانها ملحمة طويلة من السباب .. والحاج محمود
لا شك فى أنه يرسل الآن نظراته الحادة عبر الزقاق مستعدا
لمنازلته وأخذه من تلابيبه ... وفتاة أحلامه تلك التى وعدها
فى ساعات من ساعات الخجل أن يعطيها ما ليس عنده ... فهى
تنتظره الآن على باب الشقة .. كقدر مرصد لتمزيق روحه ..

وتحير أين يذهب ... والليل فى أوله ... وقواه قد شلت
... فلم يجد مناصا من التسكع ... فقد اعتاد عليه فى الاوقات
التى يزمجر فى حياته الفراغ ويلذعه الحرمان ... وعند الساعة
الحادية عشرة عاد الى بيته .

وعندما كانت الانوار تتلألأ باغراء تدعو الناس الى قضاء ليلة صاخبة ... كان هو يحس بان الحمى تلتهم جسمه ... والصداع يكاد يحطم رأسه ...

القاهرة : شتاء ١٩٤٩

مزرعة الحقد

قال لى محدثى

عندما طرقوا باب دارى فى الساعة الثالثة ليلا لم تصبنى أية دهشة • •فقد كنت اتوقع قدومهم لحظة بعد أخرى • •

لقد جاءوا عند الضحى •• ثلاثة من ذوى النجوم البيضاء وآخرون غيرهم •• ودفعوا الباب بقوة ودوناستئذان •• ووصلوا الى باحة الدار بخطوتين •• ولم يكن فى الدار غير النساء •• فلما رأينهم يقتحمون عليهن حرمتهن ، ويندفعون كالسهم الطائش لذن فى الغرف فزعات معولات •• وبقيت عجوز لم تقو ساقاها على الهروب •• فجلست فى مكانها مدلهة تنظر فى الوجوه المكفهرة الجائعة الى ما يشبع حقدها وسألوها بلهجة فظة عنى فصرخت فى وجوههم

ـ ماذا جرى له ؟ •• أية جريمة ارتكب ؟! ••

غير انهم نظروا اليها بسخرية وترفع •• ولعلهم أدركوا كم هى ضيقة العقل ناقصة التصور ، قليلة الادراك ••

وفتشوا كل الغرف •• ونظروا بتطفل فى كل الزوايا •• وأدخل أحدهم رأسهم فى التنور المتهدم فى وسط البيت •••

ووطأت أحذيتهم الضخمة أسرة النوم ومخادع الازواج ..

ولما لم يجدو شيئا .. خرجوا ..

وعندما طرقوا الباب للمرة الثانية فى الساعة الثالثة كان الليل يرتعش خوفا من اقبال فجر جديد ، والنجوم تتغور واحدة بعد أخرى ، وكنت فى فراشى أحلم بالحرية ترفرف فى سماء بلادى ، وبالسعادة تتغلغل فى كل مكان وتعم كل انسان وبالسلام يخفق لواؤه على جميع الناس . غير أن طرقاتهم بعثرت حلمى ، كما تعثر يد قاسية أوراق زهرة عاطرة ، فنهضت من فراشــــى فزعا ، وأرتديت ملابسى على عجل ..

ورأيت سيارة تنتظرنى فركبتها معهم ، واخترقنا الشوارع المقفرة الا من سيارات تطل منها « أشياء كأنياب ذناب جائعة ، ويحرسها رجال اطفأ البرد القارس بريق أعينهم ..

كانت تلك الليلة أشد ليالى الشتاء بردا ، وعنـــدما كانت السارة تنطلق كان النسيم الرطب يلفح وجهى ويمتص دمى ، وكانت اطرافى متجمدة تماما لا سلطة لى عليها ، وكان جسمى كله تسرى فيه قشعريرة مستمرة كأمواج لا آخر لها ، وكنت وأنا قابع فى ركن السارة أحس أن محركها الذى يزمجر فى سكون الليل كحيوان فقد صوابه سوف لا ينتهى من حركته حتى يقف قلبى عن الحركة وأودع عالم الناس ..

ورأيت فى الضوء الشاحب المحتقن عيونا ترمقنى بنظرات

شرسة وكأنها وسط جو يسيطر عليه الموت الابيض •• لا تحس الا بشعور واحد ••• أن تزرع الحقد فى كل شىء يقع تحت طائلها ••

وسألت أحدهم

ـ الى أين أنتم ذاهبون بى ؟ ••

فبرقت عيناه بريقا أسـود •• ومط شفتيـه بازدراء •• ولم يجب ••

ووقفت السيارة بعد جولة تعذيبية فى شوارع عراها البرد من كل مظهر من مظاهر الحياة عند ثكنة سوداء اللون ، وأنزلونى من السيارة ، ووضعوا الحديد بيدى •• ومشى الرجل الماسـك بطرف السلسلة دون أن يخطرنى •• وسحبتنى فطاظة خلفـه كحيوان مكروه ••• فتبعت خطواته وهى ترسل فى الجو الجامد أصواتا ذات رنين ممقوت •• وصفرت الريح وراءنا صفـيرا مبحوحا مريضا بعد أن مرت فى فضاء الثكنة ، وتشبعت بالكآبـة الصدئة الجاثمة على صدرها ••

ووقف الحذاء الضخم بحمولته أمام غرفة •• دفعتنى يد غليظة الى داخلها ••

فوقفت عند بدايتها أنظر الى تلك الاشباح المتكدسـة فى انحائها على غير نظام ، مضطجعة على أرض قذرة سوداء ، ومتقية البرد بأثواب ممزقة وارسلت عيونها نظرات شرهة الي كما ترسلها

الى مخلوق قادم من عالم ودعته منذ زمن بعيد ! •• رأت آثاره فى ملابسى التى لم يصبها الوحل ، ولم يعفرها النوم على الارض ، وفى نظراتى التى ما زال نور عالم الحرية يترقرق فيها ••

وجلست معهم فى صمت وألم •• كانت الغرفة قذرة كزريبة للحيوانات ، سوداء كمطبخ قديم ، نتنة كمجمع للنفايات •• ورأيت الحوض الذى يحتل ركنا من أركان الغرفة تتجمع فيه فضلات الانسان ويرسل رائحة كريهة تقطع الاحشاء تقطيعا ، وتجعل التنفس عسيرا مقززا يسحق الروح بين فكى رحى هائلة ••

وحاولت جاهدا أن أغيب عن الوجود بأى ثمن فأطبقت جفنى ولم أكن أعرف قبل ذلك أن الانسان يحمل لاخيه مثل هذا الحقد •• لقد بدأت معانى الحياة تتساقط كأوراق ذابلة فى خريف جاف مجدب •• واصبح الماضى كجزيرة تغيب شيئا فشيئا عن ناظرى •• وبدأت أفتش فيه عن جريمتى •• تلك التى ساقتنى الى هذا المصير •• بين حنايا الماضى وزواياه •• ان الناس ليرتكبون فى وضح النور جرائم لا عداد لها يصابون بالتخمة من جوع الناس ، ويشربون الكؤوس من عصارة حياتهم ، ويشترون الجاه ببيع مصائرهم •• ولكنهم طلقاء ينعمون بالحرية ، وبالحياة الهانئة الرغيدة •• أما أنا فكل ما أحمله فى نفسى هو هذا الحب العنيف الطاغى للناس جميعا ، هو هذا الشغف الحاد فى ضمان مستقبل

مضىء كنهار سماؤه صافية •• ان المحبة فى روحى كأغنية رقيقة •
أيريدون أن يذبل نغمها ويموت ؟!

وفتحت عينى بملل وفتور •• فرأيت الاشباح قد تكورت •• على الارض السوداء •• كتل ضخمة لا حراك لها •• كأن الارض الرطبة قد امتصت كل حيويتها فألتصقت بها كما تلتصق قطع من الخشب على لوّحد من الجليد •• وانبعث من جانبى الايسر شخير موحش كنعب بوم جريح •• ومن جانبى الايمن تأوهات متقطعة لا شعورية ••

وتحركت كتلة أمامى حركة تنم عن الغيظ والامتعاض •• وهب رجل من نومه بفزع أبله حاسر الرأس منتفخ العينين •• وأدخل يده فى جسمه وهرشه بقوة •• حتى سمعت أصوات الاظافر محوحة ••• وخلع قميصه فجأة ، فبدا صدره العارى توشك أضلعه أن تقفز من جلد تشوب لونه الاسمر زرقة كدرة •• وأخذ يقلب القميص بين يديه •• ويفتح ثناياه ••• ثم يخرج منها شيئا ما يهرسه بين اصعبه ••• ثم يسحقه بأظافره بنشوة وتشف ••

وحانت منه التفاتة فرآنى وتحول الي وجه أمرط متراخى الجلد •• أهم ما فيه عينان واسعتان جامدتان •• كأن فنانا عبقريا رسمهما بدقة على صفحة وجهه الداكنة •• وقال بلهجة أجنبية مضحكة وهو يشير الى قميصه المسبل على حجره

ـ ماذا أعمل ؟ ان جسمى لم ير الماء منذ أكثر من سنة

وأهتز جلد وجهه وتثنى كأنه شيء مفصول عن جمجمتــه وتابع حديثه .

عشرة أشهر قضيت فى هذه الغرفة المظلمة ... لا أخرج منها الا للمراحض ... مرة واحدة فى اليوم .

وتفرس فى قميصه وحرك أصابعه عله وأكتسى وجهـــه صرامة مضحكة ثم رفع وجهه الي فبدت عيناه ضالتين فى صفحة وجهه من غير حاجبين ولا رموش فى حين تلدت من أسفل خديه قطعتان من الجلد المتراخي وقال بحرقة وانفعال

ـ نحن قد زهدنا فى الحياة .. والحياة لا تزهد فينـا .. فما أشق هذا العيش !

وبلع ريقه فبرزت عروق رقبته ومال الي وهمس

ـ لقد هربت من عائلتى فى ايران .. تعسا لتلك العائلة .. عشرة بطون لا تشبع .. قلت لنفسى أأنت حمار .. ثور .. تكد لها طوال النهار وجزءا من الليل .. لماذا لا تهيم على وجهك فى أرض الله الواسعة .. أهرب .. تخلص من حمل لا طاقة لك بحمله .. فهمت على وجهى سيرا على الاقدام .. لا أعرف الى أية جهة أقصد .. حتى هجم علي رجال يحملون أسلحة .. وقالوا تجاوزت حدود بلادك ودخلت الى العـــراق .. بابا .. أنا لا أعرف حدودا .. ما هى الحدود ؟ .. كلها أرض الله ..

أوه ••• لقد قضيت خمسة عشر عاما من عمرى فى العراق •

وصمت قليلا وفلتت من يديه حشرة سقطت على الارض السوداء فطاردتها بلهفة كفه المتوكئة على أصابع هزيلة ••

ـ وأخلونى الى هذه الغرفة ••• وقالوا سنرسلك الى بلدك فى اليوم التالى ••• الا اننى بقيت عشرة أشهر لا أحد يسأل عنى •• ولم يأت اليوم •• التالى حتى الآن

وتحركت فى عنيه الجافتين معانى باهتة للحياة وتهدل جلد وجهه أكثر من ذى قبل وقال بحنان

ـ أتدرى •• اننى مشتاق لاولادى •• سبعة عصافير لحمية •• أوه •• ما أسوأ حظى ! ••

وأنتهى فى تلك الساعة من تقلب قميصه فأدخل صدره العظمى فيه وقال

ـ من يدرى •• فقد يكون الفرج بسببكم •• فقد بدأتم تفدون جماعات •• جماعات •• حتى أخذت الغرفة تضيق •• يا رب ! ••

وألتفت الي بسرعة وقال هامسا

ـ ما السبب ؟ ••

ـ سبب ؟ •• أى سبب ؟ ••

ـ ما السبب فى أنهم يأتون بكم الى هنا ؟ ••

وتغرست فى وجهه المرتسم فى صفحته الكدرة تساؤل مرتجف وقلت

ـ أوه •• نحن نطالب بالحرية لوطننا •• والسلام لجميع الناس •• نحن نحب جميع البشر الطيبين ••

وصمت قليلا وبدا له الامر محيرا فأدار طرفه فى أرجاء الغرفة •• فرأى أكداس الاجسام ما زالت مرمية فى أماكنهـا ملتفة بأغطيتها الداكنة الخفيفة وهمس فى أذنى

ـ أتدرى ؟ •• انكم شبيهون ببنى وطنى •• أتدرى ••• انها فظاعة واعتداء على الله •••

وارتجف جلد وجهه الامرط وهز منكبيه بانفعال وقال

ـ الله يحب العدل والسلام أنا شخصيا أكره الحرب ••• أوه •••• الحرب •••• لقد قتل والدى بالحرب •••• ومات لى أربعة أطفال من الجوع ••• زمن الحرب ••• وعشت على نخالة الطحين •• أنا وأطفالى •• زمن الحرب •• لماذا يحبون الحرب ؟ ••• الانسان لا يحب شيئا لو لم تكن له منفعة به •••

وخيم على الغرفة الموحشة همود بارد عندما صمت الرجل ذو الوجه النحاسى المغبر •

لقد أحسست بعاطفة ندبة تولد فى نفسى •••

وتملكنى شعور لاهب بالفوز • لقد أغتصبوا حريتى لاننى أدعوا الى ما أؤمن به •• لاننى أبشر بحياة هانئة يسود فيها السلام

والطمأنينة •• وهم يحسبون ذلك كفيلا بالقضاء على ما أبشر به •• غير أن هذا الرجل البسيط خلق الثقة فى نفسى •• لقد علمه الواقع أن يكره الحرب •• أنه يضمر لهـا فى نفسـه ذكريات مريرة ••

وشعرت بارتياح عميق لهذه النتيجة •• ان هناك ملايين من الناس البسطاء يؤمنون مثلى بالسلام لانـه شيء طبيعـى كحياتهم ويكرهون الحرب مثل ما يكرهون القسوة والظلم والشذوذ ••

ورفعت رأسى نحو الباب الحديدى الضيق •• فرأيت طلائع النور تكافح لتبديد ظلمة الغرفة فتتسلل من وراء القضبان كأرواح شفافة ••• فهرعت الى الباب ولمحت من بعد ضوء الشمس ••• فوقفت أصرخ بانفعال وحدة

أيتها العين الثاقبة •• يا معين الكراهية لكل ظلمة •

أنا هنا لانني مغرم بك •• محب لك متمثلة فى كل شيء •• انني لأؤمن بشيئين ايمانا لا نهاية له

اشراقك كل صباح كل يوم •• وانتصار الحقيقة •

كتاب الطليعة القادم

الربيع والجوع

بقــــلم

حسين مردان

الفهرس

منشورات دار الطليعة

صدر منها

السجن الكبير	لصلاح سلمان
من يوم الى يوم	لعبدالمجيد الونداوى
حصيد الرحى	لغائب طعمة فرمان

ثمن النسخة (١٠٠) فلس

صورة الغلاف

بريشة الفنان محمود صبرى

